

سُورَةُ الْقَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ن ، وَالْقَلَمِ . وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ
لَكَ لَاجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ
وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَذُوا لَوْتٍ ذُهْنُ
فَيْدِهْنُونَ . وَلَا تُطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . مَمَّازٍ مَشْأءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . مَنَاعٍ
لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عَتُلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ .
إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِئُهُ عَلَى
الْخُرُطُومِ . إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَنْبِئُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَلِيفٌ
مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادُوا
مُصْبِحِينَ . أَنْ آغْلُوا عَلَى حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَاذْهَبُوا
وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ . وَغَدُوا عَلَى
حَرٍِّ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ . بَلْ نَحْنُ
مَخْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ

رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ • فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ •
 قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ • عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا
 مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ • كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ
 لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ • إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ • أَفَنَجْعَلُ
 الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ • مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ • أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ
 فِيهِ تَدْرُسُونَ • إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ • أَمْ لَكُمْ آيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَيْثِ
 إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ • سَلَّمْتُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ
 زَعِيمٌ • أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ •
 يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ • خَاشِعَةً
 أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ •
 فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ •
 وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ • أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ
 مُثْقَلُونَ • أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ • فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ •
 وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ • لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ
 نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ • فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ
 مِنَ الصَّالِحِينَ • وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا
 سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ • وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ •

السورة مكية مبكرة ، إلا الآيات (١٧ : ٣٣ ، ٤٨ : ٥٠) فمدنية .
 والمشهور أنها نزلت بعد العلق ، فتكون ثانياً السور في ترتيب التزول بعد « اقرأ »
 أول الوحي . وهو الذي ذهب إليه أكثر الأئمة بنص عبارة « ابن حجر » فيما نقل
 السيوطي ^(١) . وقال « البرهان الجعبري » في منظومته (تقريب المأمول في ترتيب
 التزول) :

اقرأ ، ونون ، مزمّل ، مدثر ، والحمد ، تبت ، كورت ، الأعلى علا
 ومها يكن الخلاف في ترتيب نزول سورة القلم ، فهي من أوائل السور المكية
 المبكرة التي تهدينا إلى الجو العام في منزل الوحي ، أول المبعث .

* * *

وذكر بعضهم في أسباب نزولها أنها أو معظمها « في الوليد بن المغيرة المخزومي وأبي
 جهل بن هشام المخزومي . ومناسبتها لما قبلها أنه فيما قبلها ذكر أشياء من أحوال السعداء
 والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع وأنه تعالى لو شاء لحسف بهم الأرض أو
 لأرسل عليهم حاصباً . وكان ما أخبر تعالى به هو ما يلقيه رسول الله ﷺ بالوحي ،
 وكان الكفار ينسبونه مرة إلى الشعر ومرة إلى السحر ومرة إلى الجنون ، فبدأ سبحانه
 وتعالى هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون ، وتعظيم أجره على صبره
 على أذاهم ، والثناء على خلقه العظيم » ^(٢) .

قولهم : مناسبتها لما قبلها ، يعنون سورة « الملك » التي وضعت قبلها في ترتيب
 المصحف . وفيه التفات إلى نسق هذا الترتيب ، لا يفوتنا معه أن سورة الملك نزلت
 متأخرة ، فهي السابعة والسبعون في ترتيب التزول على المشهور ، بينها وبين سورة
 القلم ، على أي قول في ترتيب نزولها ، أكثر من سبعين سورة !

(١) الإتيان في علوم القرآن : ٢٩/١ وما بعدها ط مصر ١٢٧٩ هـ .

(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٣٠٧/٨ وقابله على ما نقل الإمام الطبري في تفسيره من أسباب التزول :

جـ ١٠/٢٩ .

وكونها نزلت في الوليد أو أبي جهل لا يقتضى الاعتبار بخصوص السبب ، حيث لا قرينة تصرف إليه عموم لفظ الآية ، وأسباب التزول لا تعدو أن تكون قرائن مما حول النص ، تُعين على فهم الظروف التي نزلت فيها السورة أو الآية . على ما سبق بيانه في تفسير سورة الضحى^(١) .

« نَ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْتُونٍ .

وتبدأ السورة بحرف (ن) يُكتب هكذا حرفاً واحداً . ورسماً في المصحف الإمام على هذا ، يجعلنا نستبعد ابتداء ما نقل الإمام الطبرى من اختلاف أهل التأويل فيه : قيل هو النون أى الحوت واحد النينان ، أو هو لوح من نور ، أو اسم للدواة ويمنع أن هذا النون يرسم ثلاثة أحرف « نون » وليس حرفاً واحداً (ن) . وهذا الاستبعاد يعفينا من الوقوف عند ما روى عن « ابن عباس ومجاهد » في هذا الحوت الذى عليه الأَرْضُونَ ، تحت الأرض السابعة ؛ وان الله سبحانه خلقه قبل السموات والأرض ، فلما دُحيت الأرض اضطرب الحوت فادت الأرض فأثبتت بالجيال !^(٢) .

كما يعفينا من العُقد اللغوية والنحوية والصرفية في إعراب نون ، اسماً للدواة ، وقد صرح الزمخشري بأنه لا يدرى - ولا أدرى معه - « أهو وضع لغوى أم شرعى ؟ وهل هو اسم جنس ، أو علم لنون يمنع من الصرف ؟ »^(٣) .

وفي قول آخر إن (ن) اسم للسورة . وليس في هذا القول ما يغنى ، لأن السورة على هذا القول إنما سميت بهذا الحرف في أولها ، كما سميت سورتا (ص ، ق) بالحرفين في أولهما .

ويبدو أن الراغب الأصفهاني ، اختار أن تكون (ن) الحرف المعروف من حروف الهجاء ، وهو ما نظمئ إليه ، فتكون سورة القلم هى أول سورة نزلت مفتحةً بحرف

(١) في الجزء الأول من التفسير البيانى . وانظر السيوطى في الإبتقان : ٣٥/١ .

(٢) الطبرى : جامع البيان ١٠/٢٩ .

(٣) الكشاف : ١٢٦/٤ .

من هذه الحروف المقطعة بفواتح السور ، وبعدها نزلت ثمان وعشرون سورة مفتوحة بهذه الحروف ، منها ست وعشرون سورة مكية ، وثلاث سور من أوائل العهد المدني : البقرة وآل عمران ، والرعد .

ومجموع حروفها بغير المكرر منها أربعة عشر حرفاً ، هي نصف حروف معجمنا . وقد اختلف المفسرون في تأويلها ، وأنقل بإيجاز من أقوالهم فيها :

• إنها إشارات إلى صفاته تعالى أو أسمائه . وأصحاب هذا القول لا يكادون يجمعون على دلالات الحروف فيه ، ففي الكاف مثلاً ، قيل : كافٍ ، أو كريم ، أو كبير . وفي حرف (ق) قيل : قادر أو قاهر . وفي حرف (ن) قيل : ناصر ، أو نور . . .

• وقيل هي علامات وضعها كتاب الوحي . ويمتنع أن تدخل هذه العلامات ، وهي من قول البشر ، في آيات القرآن بعد البسمة .

• وقيل هي من حساب الجُمَّل . وهذا من إسرائيليّات « حَيَّيْ بْنِ أَخْطَبِ الْيَهُودِيِّ » فتقول الرواية إن أخاه أبا ياسر مرّ في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة • الم • فأخبر أخاه حَيَّيْ بْنَ أَخْطَبِ بِذَلِكَ ، فَنَشَى إِلَى الْمَصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَقَالَ : « لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءَ مَا نَعَلِمُهُ بَيْنَ نَبِيِّنَا مِنْهُمْ مَا مَلَكَهُ وَمَا أَجَلُ أُمَّتِهِ غَيْرِكَ : الْأَلْفُ وَاحِدَةٌ وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً . أَفَنَدْخُلُ فِي دِينِ نَبِيٍِّّ إِنَّمَا مَدَّةُ مُلْكِهِ وَأَجَلُ أُمَّتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً ؟ »

ثم سأل : هل مع هذا غيره ؟ أجاب عليه الصلاة والسلام : نعم ، المص . فعندما اليهودى بحساب الجمل فإذا هي إحدى وستون ومائة سنة ، ثم عدت المره فإذا هي إحدى وسبعون ومائتا سنة « وانصرف بقومه وهو يقول للنبي عليه الصلاة والسلام : لقد لبس علينا أمرك حتى ما ندرى أقليلاً ما أعطيت أم كثيراً » (١) .

• وقيل هي بمثابة تنبيهات لما يكون بعدها من الحديث ، وأكثر ما يكون بعدها ذكر القرآن الكريم . وقد فصل « الفخر الرازي » هذا الوجه . وكذلك « ابن قيم

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/١٩٤ طبع .

الجوزية» في (التيان) واستوفاه «ابن كثير» في تفسيره على وجه الاستقراء .
 • وقيل إنها من التشابهات التي استأثر الله بعلمها . وقريب منه ما روى عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرًّا وإن سر هذا القرآن فواتح السور^(١) .

• واختار ابن القيم أن يكون في افتتاح السور بها ، تنبيه على شرف الحروف وعظم قدرها وجلالتها ، إذ هي مباني كلامه تعالى وكتبه التي أنزلها على رسله ، وأقدر عباده على التكلم بها ، وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته^(٢) .

وهذا الوجه قريب إلى مجال دراستنا البيانية ، وأقرب منه قول من قالوا إن هذه الحروف « ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من مثل حروفهم . . . ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعرفونها فيكون ذلك تعريفاً لهم ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله »^(٣) .

وقد عرضت للموضوع بمزيد تفصيل وتدبر ، في كتاب (الإعجاز البياني للقرآن)^(٤) .

• • •

ومجيء الحرف (ن) في (سورة القلم) المكية المبكرة ، فيه لفت واضح إلى سر الحرف في البيان المعجز . وفي السورة جدل من المشركين في نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وجحد لمعجزته ، وقول بأنها من أساطير الأولين . فكان هذا تمهيد للمعجزة التي تتحداهم أن يأتوا بمثله ، واستدراجهم إلى أن تلزمهم الحجة ، بأن يعرضوه على ما عرفوا من أساطير الأولين . وإن كلماته لمن الحروف التي عرفوها في عربيتهم ، لغة الكتاب العربي المبين . . .

(١) الإيقان : ٣/٢ .

(٢) التيان : ٢٠٤ .

(٣) الإيقان : ١٣/٢ .

(٤) طبع دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٢ . وقدمت منه مجلداً ، في ندوة أسبوع القرآن بجامعة أم درمان الإسلامية (فبراير ١٩٦٨) ومحاضرة في جامعة محمد الخامس بالرباط (مايو ١٩٦٨) .

وقد كانت كلمة الوحي الأولى « اقرأ » لافتة إلى آية الله الكبرى ، في الإنسان الذي خلقه سبحانه من علق ، وعلم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم .
وبعدها نزلت سورة القلم مبتدأة بحرف (ن) لافتة إلى سر الحرف الذي هو مناط القراءة والعلم والبيان ، تنطق به منفرداً منقطعاً فلا يعطى أى معنى أو دلالة ، بل لا يكاد يخرج عن مجرد صوت ، ثم يأخذ الحرف موضعه من الكلمة في البيان ، فيتجلى سره الأكبر .

« وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » .

قال الإمام الطبري إن القلم معروف « غير أن الذى أقسم به ربنا من الأقلام ، القلم الذى خلقه تعالى فأمره بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة »^(١) .

وأطال « ابن قيم الجوزية » في شرح فوائد القلم وبيان عظمته ، قال : « فأقسم بالكتاب - ن - وبالقلم الذى هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه وكُتِبَ به الوحي وقِيَدَ به الدين وأُثْبِتَ به الشريعة وحفظ به العلم وقامت مصالح العباد في المعاش والمعاد » .

ثم عقد فصلاً في مراتب الأقلام فجعلها اثني عشر قلماً ، أعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق . وقد أقسم به إعظاماً له^(٢) .

ويوجه هذا إلى تأويلهم « وما يسطرون » بأن الضمير في الفعل للحفظة من الملائكة الذين يكتبون بأمر الله أقدار الخلائق وأعمالهم في اللوح المحفوظ .

وفيه قول آخر ، هو أنه القلم المؤلف المعتاد الذى يسطر به الناس كتاباتهم^(٣) ووجه إعظامه بالقسم ، أن الله تعالى هو « الذى علم بالقلم » علم الإنسان ما لم يعلم .
والذى نظمنا إليه - والله أعلم - هو أن تكون الواو هنا قد خرجت عن معناها

(١) تفسير الطبري : ج ٢٩ سورة القلم .

(٢) البيان في أقسام القرآن ، ٢٠٧ : ٢١٢ - وقد سبقت الإشارة إليه في تفسير آية « الذى علم بالقلم » .

سورة العلق .

(٣) تفسير الطبري : ١٢/٢٩ .

الأول في القسم للتعظيم ، للمحظ بياني^(١) ، هو اللفت إلى ما عهدوا من أمر القلم والكتابة واعتمادهما على سر الحرف ، توطئةً إيضاحية للردِّ على جدل المشركين في كلمات الله تعالى .

والأقرب عندنا أن يكون الضمير في « يسطرون » لمن كانوا ينقلون من العرب أساطير القدماء ويحاولون أن يُشبهوا القرآن الكريم بها ، إذ نلمح في إيتار « يسطرون » على : يكتبون : ما يتجه بها إلى قوله تعالى في الآية بعدها من سورة القلم : « إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » .

ونظيره ما في الآيات :

« وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً »

(الفرقان ٥)

« يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطيرُ الأولين » (الأنعام ٢٥)

« لو نشاء لقلنا مثلَ هذا إن هذا إلا أساطيرُ الأولين » (الأنفال ٣١)

« لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبلُ إن هذا إلا أساطيرُ الأولين »

(النحل ٦٨)

وآيات (النحل ٢٤ ، الأحقاف ١٧ ، الطغفین ١٣) .

هم إذن ، كانوا على علمٍ بأساطير الأولين ، وفيهم من كان يكتبها ويتلو منها تحدياً للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، على ما روى « ابن إسحاق » في (السيرة النبوية)^(٢) . وهذه هي آيات الكتاب المعجز معروضة عليهم بلغتهم وحروفهم ، فليقابلوها على ما لديهم مما كانوا يسطرون .

• • •

والرسول عليه الصلاة والسلام في أول عهده بالوحى ، كان في أشد الحاجة إلى ما يثبت قواذه ويذهب عنه قلقَ النفس وشواغل البال . وكتب الحديث والسيرة ،

(١) انظر تديرنا هذه الظاهرة الأسلوبية في سور : الضحى ، والعدايات ، والتازعات من التصدير البياني ،

وسور : العصر والليل والفجر في هذا الجزء .

ومعها بحث « الظواهر الأسلوبية وسر التعبير » في كتاب (الإعجاز البياني) .

(٢) طبع الحلبي بالقاهرة : ٣٢١/١ .

تصف حالته النفسية حين آب من غار حراء في ليلة القدر ، مرتعداً بادئ الحيرة والقلق ، وأفضى إلى زوجته السيدة خديجة بما رأى وما سمع فقالت رضى الله عنها :
أبشريا ابن عمّ وأثبت فوائده لا يخرىك الله أبداً ، إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم
وتصدق الحديث . . .

كما نقلت كتب الحديث والسيرة وطبقات الصحابة ، ما كان من تلقى « ورقة بن نوفل » لخبر الوحي الأول ، وقوله للمصطفى عليه الصلاة والسلام : والذى نفسى بيده
إنك أنبى هذه الأمة ، ولتكنبته ، ولتؤدبته ، ولتقاتلته ولتخرجه !^(١) .

وفي ضوء ما تواتر من أخبار عن حالة المصطفى عليه الصلاة والسلام أول عهده
بالوحي ، وما واجهه من تكذيب المشركين وحرمتهم فيما يصفونه به ، نلوا الآيات :
« مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ • وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ • وَإِنَّكَ
لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

فندرك عمق أثرها في تثبيت المصطفى وتقوية فؤاده ، وتميسته لما هو بسبيل أن
يحتمل من أعباء التبليغ لرسالته ، والصبر على ما يلقى من عنت المكذبين الضالين ،
وسفه الوثنية القرشية العاتية .

وجمهرة المفسرين على أن جملة « بنعمة ربك » اعتراضية ، كما تقول
لصاحبك : أنت بحمد الله فاضل .

وهذا أقرب ممن تأولوه : ما أنت بمجنون والنعمة بربك . ذكره « أبو حيان » في
(البحر) وقال إنه تفسير معنى لا تفسير إعراب .

وفيه تكلف لا يسيغه جس العربية المرفه الذى يجلوه البيان القرآنى في ذروة
نقائه . وإنما يفهم في بساطة ويسر ، بالمألوف من بيان العربية في مثل : قولك :
ما أنت بفضل الله بشقى .

وقد سبق استقراء ما في القرآن من لفظ نعمة ، مادة وصيغة ، في تفسير آية
التكاثر : « ثم لتسألن يومئذ عن النعم » وهدى الاستقراء إلى أن القرآن يستعمل النعمة

(١) السيرة المشامية ١/٢٥٤ . وعيون الأثر ١/٨٢ وفيها تخريج الحديث .

لنعم الدنيا ، ويخص صيغة النعم بدلالة إسلامية على نعم الآخرة^(١) .
ونقف هنا عند هذه الباء في خبر ما : بمجنون . وقد جرى النحاة والمفسرون على القول بأنها زائدة ، فهي تعمل في لفظ الخبر ، ويبقى الحكم الإعرابي على أصله ، يمنع من ظهور حركته ، اشتغالُ المحل بكسرة حرف الجر الزائد .

وباستقراء ما في القرآن الكريم من خبر ليس وما ، يلقانا اطراد وقوع هذه الباء المقول بزيادتها ، في خبرها المفرد غير المؤول . لم تتخلف إلا في بضع آيات لها سياقها الخاص الذي يوجه إلى الاستغناء عن الباء^(٢) .

ولا يهون القول بأن الباء حرف جر زائد ، إذ مقتضى القول بزيادتها إمكان الاستغناء عنها ، وهو ما لا يؤنس إليه البيان القرآني .

والنحويون من المفسرين ، يذهبون إلى أن الباء زائدة لتأكيد النفي^(٣) .
ونقول إن الآية لا تؤخذ بمعزل عن نظائرها ، والذي نطمئن إليه ، في هدى التدبير لما استقرأنا من هذا الأسلوب في القرآن ، هو أن الباء تأتي في خبر المنفي بما أو ليس ، فتجعله جحداً وإنكاراً :

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالهم »
« وما أنا بظلام للعبيد »
« وما الله بغافل عما تعملون »
« وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل »
« وأن الله ليس بظلام للعبيد »
« فليس بمعجز في الأرض »
« وليس بضارهم شيئاً »
« ولستم بأخذيه »

(١) في الجزء الأول من التفسير البياني .

(٢) المسألة معروضة بتفصيل في مبحث سر الحرف من كتاب (الإعجاز البياني) مع الاستقراء الكامل لآياتها في القرآن ، وتدبير سياق الآيات التي استغنى الخبر فيها عن الباء .

(٣) الزمخشري : الكشاف ٤/سورة القلم .

« ومن لستم له برازقين »

« لست عليهم بمصيطر »

« قل لست عليكم بوكيل »

فإذا جاءت الباء في خبر المنق بأسلوب الاستفهام : أليس . . ألسنت ؟ لم تكن لتأكيد النقي ، بل تخرجه بياناً من النقي ، إلى تقرير مُلزم وإثباتٍ مؤكد ، وفي هذا الأسلوب ، تلزم الخبرَ الباءَ المقولُ بزيادتها ، باستقراء كل آياتها :

« أليس هذا بالحق ؟ »

« ألسنتُ بربكم ؟ »

« أليس الله بكاف عبده ؟ »

« أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ »

« أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ »

« أليس الله بعزيز ذى انتقام ؟ »

« أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ »

« أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ »

« أليس الصبح بقريب ؟ »

وفي آية القلم ، تأتي الباء في خبر المنق بما ، فتصير به إلى إنكار بات :

« ما أنتَ بنعمة ربك بمجنون . »

• • •

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . »

الأجر في أصل الوضع اللغوي ، الجزء المادى على عمل أو منفعة ، ومنه الإيجار والاستتجار في المعاملات . وينقل إلى الجزء المعنوي ، فيُخصَّ بصيغة الأجر دون الأجرة التي يغلب استعمالها في المعاملات .

ثم جاء الأجر في المصطلح الديني ، بمعنى الثواب ، ملحوظاً فيه ما يعود من جزاء العمل .

ومن الاستعمال القرآني للأجر بمعناه الأول ، الأجرور في مهور النساء :

« وآتوهن أجورهن »

وآيتا القصص في ابنتي شعيب وموسى :

« قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إن خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمينُ *

قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانينَ

حِجَجَ ، فإن أتممتَ عشراً فمن عندك *

ومن استعماله القرآني بدلالة مجازية أو اصطلاحية :

« إن أجرى إلا على الله »

« ولأجرُ الآخرة خيرٌ للذين آمنوا »

« أجرهم عند ربهم »

وآية القلم :

« وإن لك لأجرًا غير ممنون » .

ومن معاني المنِّ في العربية ، ما يوزن به . والممنون الموزون ، ومنه جاءت المنة

بمعنى النعمة ذات القيمة والوزن . ومنَّ على فلان أنعم عليه .

قال الراغب في (المفردات) : وذلك لا يكون على الحقيقة إلا من الله سبحانه

وتعالى .

ويعلم من الوزن ، جاء الممنون بمعنى المحسوب المعداد : منَّ على فلان ، حسب

عليه ماقدَّم إليه من خير أو منفعة ، وذلك مستقبح بين الناس ، ومنه القولُ المأثور :

« المنَّةُ تهدم الصنيعة » لأنها تقطع الشكر وتنقص النعمة . وذهب « الراغب » إلى أن

المنون . بمعنى المنية ، جاءت من كونها تنقض العدد وتقطع المعداد .

والاستقراء القرآني للمادة ، يرجح ما ذهب إليه الراغب من أن المن لا يكون في

الحقيقة إلا من الله ، إذ يأتي المنُّ مسنداً إليه تعالى ، في سياق التفضل والتذكير بنعمه

على خلقه . كالذي في آيات :

« لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم »

(آل عمران ١٦٤)

« قال أنا يوسفُ وهذا أخى قد منَّ الله علينا » . (يوسف ٩٠)

« لولا أن منَّ اللهُ علينا لَحَسَفَ بنا » (القصص ٨٢)
 « قالوا إنا كنا قَبْلُ في أهلنا مشفقين • فمنَّ اللهُ علينا ووقانا عذابَ
 السُّومِ » (الطور ٢٧)
 « ولقد متَّنا على موسى وهرون • ونجيناها وقومها من الكَرْبِ العظيمِ »
 (الصافات ١١٤)

ومعها آيات : الأنعام ٥٣ ، النساء ٩٤ ، طه ٣٧ ، القصص ٥ ، إبراهيم ١١ .

أما حين يأتي المَنَّ في القرآن مسنداً إلى المخلوقين ، فالسياق على وجه النهي
 أو النفي ، كالذي في آيات :

« ولا تَمُنُّ تستكثِرُ • ولربُّكَ فاصبرُ » (المدثر ٦)

« يَمُنُّونَ عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل اللهُ يَمُنُّ عليكم
 أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » (الحجرات ١٧)

« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا متَّ ولا أذى
 لهم أجرهم عند ربهم . . . » (البقرة ٢٦٢)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى »

(البقرة ٢٦٤)

إلا أن يكون في نص السياق قرينة صارفة لمن البشر عن وجهه المذموم ، كالذي
 في آية « محمد » في قتال الذين كفروا : « حتى إذا ائتمسواهم فشَدُّوا الوثاق فإما متَّ بعدُ
 وإما فدا » حتى تصَّع الحرب أوزارها « والمنُّ فيها بمعنى : إطلاق بغير فدية .

وآية (ص) في سليمان : « هذا عطاؤنا فأمَّنْ أو أمسِكْ بغير حساب » ٣٩

وفي تفسير « غير ممنون » بآية القلم ، قال « الراغب » : إنه غير مقطوع

ولا منقوص .

ومثله « ابن القيم » في (البيان) : غير مقطوع بل هو دائم مستمر .

ومما فسره به « الزمخشري » :

« غير ممنون به عليك لأنه ثواب تستوجهه على عملك ، وليس بتفضُّل ابتداءً ،

وإنما تمنُّ الفواضلُ لا الأجورُ على الأعمالِ» (١).

أنكره « أبو حيان » ورأى فيه « دسيئةً اعترال » (٢).

وكذلك أنكره « ابن المنير الإسكندري » ، فقال في (الانتصاف) (٣) :

« . . . ما كان النبي ﷺ يرضى من الزمخشري بتفسير الآية هكذا ، وهو ﷺ

يقول : لا يدخل أحدٌ منكم الجنةَ بعمله . قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال :

ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللهُ بفضلٍ منه ورحمة . . . لقد بلغ الزمخشري سوء

الأدب إلى حدٍّ يوجب الحدَّ ، وحاصلُ قوله أن الله لا مئةً له على أحد ولا فضلَ

في دخولِ الجنةِ لأنه قام بواجبٍ عليه . نعوذ بالله من الجراءة عليه . »

ونحتكم إلى القرآن الكريم ، فيهدينا تدبيرُ ما نقلنا من آياتِ المن ، إلى أن الله

تعالى أن يمن على عباده تفضلاً وتذكيراً بنعمه ، وإنما يُكره المنُّ من البشر ، حين

يكون على وجهِ التعالي والمحاسبة . ولآية القلم نظائر في آيات :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » (فصلت ٨)

(ومعها آيتا : التين ٦ ، والانشقاق ٢٥) .

وبها نستأنس في فهم آية القلم ، فنطمئن إلى تفسيره بأنه أجر غير معدود ولا مشوب

بما ينغصه . وليس على الوجه الذي ذهب إليه « الزمخشري » . فالله سبحانه وتعالى يمنُّ

على نبيه المصطفى وعلى عباده ، تفضلاً وإنعاماً .

وتنكيرُ « أجر » يفيد الإطلاق ، والتعميمَ غيرَ المقيدِ بتعريفٍ يُخصِّصه .

• • •

وفي تفسير آية : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

نقل « الإمام الطبري » قول من فهموها بحديث السيدة عائشة رضی الله عنها ، أنها

سئلت عن خلق الرسول ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن .

وقد يرد عليه أن الآية مكية مبكرة من أوائل الوحي ، ولم يكن قد نزل من القرآن

الكريم ما تُعرف به القيسمُ الخلقية القرآنية . . .

(١) الكشاف : ١٢٦/٤

(٢) البحر المحيط : ٣٢٦/٨ .

(٣) على هامش الكشاف : ١٢٦/٤ .

وفسرها بعضهم بالدين : وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام^(١) .
 وليس في القرآن كله ، ما يؤنس إلى استعمال الخلق بمعنى الدين .
 وإنما تؤكد الآية ، ما علم الله من خلق نبيه المصطفى ، وقد كان منذ صباه معروفاً
 في قومه بسمو الخلق ، كما كان في شبابه فتى قريش أمانة وصدقاً ونبلاً وعفة . أو
 كما قال عمه أبو طالب في خطبة زواج محمد من خديجة بنت خويلد :
 « أما بعد فإن محمداً من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً
 وعقلاً »^(٢) .

وقالت أم المؤمنين الأولى ، رضى الله عنها ، في ليلة القدر :
 « الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشريا ابن عم واثب . . . والله لا يخزيك الله أبداً ،
 إنك لتصل الرحم وتؤدى الأمانة وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين
 على نواب الحق »^(٣) .

ومعها ما تواتر به الخبر من لقب الأمين الذى أطلقته قريش على محمد بن عبد الله
 قبل المبعث .

وهذه آية القلم ، من أوائل الوحي : « وإنك لعلى خلق عظيم » .
 شهادة إلهية بعظمة خلق المصطفى عليه الصلاة والسلام ، تتوج ما كان معروفاً من
 مكارم أخلاقه ، وتمنحه القوة على مواجهة المكذبين الطاغين .

« فَسَبِّحْهُ وَيُبْصِرُونَ * بِيَكْمُ الْمَفْتُونُ » .

أصل الاستعمال اللغوى فى البصر ، للعين الباصرة . ومنه فى القرآن الكريم مثل
 آيات :

« وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » (النحل ٧٧)

« يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه » (البقرة ٢٠)

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » (النور ٣٠)

(١) تفسير الطبرى : ج ١٢/٢٩ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٠١/١ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٥٣/١ . والحديث مخرج فى (الصحيحين) .

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » (النور ٣١)

« فإذا برق البصر » و« خَسَفَ القَمَرُ » و« جُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ »

(القيامة ٧)

« وإذا زأغت الأَبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ » (الأحزاب ١٠)

« يكادُ سنًا برقه يذهبُ بالأبصارِ » (النور ٤٣)

ثم قيل للإدراك الثاقب : بصر ، بملحظ من قوة التحقيق ونفاذ النظر . واختصت القوة المدركة بلفظ البصيرة ، فلا يكاد يقال للحاسة بصيرة ، ويقال لذى البصيرة بصير ، ولا يقال في الحاسة إلا المُبصر .

ومن الأسماء الحسنى البصيرُ ، وليس المبصر من أسمائه تعالى أو صفاته . -
وأكثر ما في القرآن الكريم من البصر ، هو من معنى البصيرة ، كالذى في آيات :

« إن في ذلك لَعِبْرَةً لأولى الأبصار » (آل عمران ١٣)

« لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنكَ غطاءك فبصرك اليوم حديدٌ »

(ق ٢٢)

« فن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » (الأنعام ١٠٤)

« ولم قلوبٌ لا يفقهون بها ولم أعينٌ لا يبصرون بها » (الأعراف ١٧٩)

« وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » (الأعراف ١٩٨)

« أفأنت تهلدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » (يونس ٤٣)

« فلما جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحر مبين » (الزلزال ١٣)

ويبدو أن استعمال البصر في رؤية العين ، ملحوظ فيه غالباً ، التمييز ونفاذ

النظر ، بشاهد من آيات :

« أفأتأتون السحر وأنتم تُبصرون ؟ » (الأنبياء ٣)

« وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تُبصرون ؟ » (الزخرف ٥١)

« أفسحرت هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ » (الطور ١٥)

« فأغشيتناهم فهم لا يبصرون » (يس ٩)

ونظمين إلى أن البصر في آية القلم ، بمعنى النظر الثاقب المميز والمعرفة

المدركة ، وزمن الفعل فيه منقول إلى المستقبل القريب بحرف السين :
« فستبصر ويبصرون • بأيكم المفتون » .

ولا أشق على القارئ بنقل الخلاف بين النحويين في توجيه آية « بأيكم المفتون » وإعرابها . وقد لخصه « ابن قيم الجوزية » بإيجاز واف ، نراه يغنى هنا ، قال :
« وقد اختلف في تقدير قوله • بأيكم المفتون • فقال أبو عثمان المازني : هو كلام مستأنف ؛ والمفتون عنده مصدر ، أى بأيكم الفتنة . والاستفهام عن أمر دائرين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً ، فتعين حصوله للآخر . والجمهور على خلاف هذا التقدير ، والآية عندهم متصلة بما قبلها ، ثم لم فيه أربعة أوجه :
أحدها ، أن الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون ، وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك : بحسبك أن تفعل . قاله أبو عبيد .

الثاني : أن المفتون بمعنى الفتنة ، أى : ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة . والباء على هذا ليست بزائدة . قاله الأخفش .

الثالث : أن المفتون مفعولٌ على بابه ، ولكن هنا مضافٌ محذوفٌ تقديره بأيكم فتون المفتون . وليست الباء زائدة . قاله الأخفش أيضاً .

الرابع : أن الباء بمعنى في ، والتقدير : في أى فريق منكم النوع المفتون . والباء على هذا ، ظرفية ^(١) .

ونقول مع ابن القيم : « وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه . و « ستبصر » مضمَّن معنى تشعرو تعلم ، فعُدِّي بالباء . . . وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من قريب فلا تُجِبْ مَنْ دعاك إليه من مكان بعيد » ^(٢) .

والعربية تستعمل الفتنة حسياً في إذابة الذهب والفضة وصهر المعدن بالنار . ومن معاني الفتنة في المعجم : الفن ، والحال ، والابتلاء ، والإعجاب بالشيء ، والضلال والكفر ، والإيقاع بين الناس .

وهي تحتل في الآية ، أن يكون المفتون من الابتلاء بالضلال والبغى . ولعلها تحتل كذلك ما قاله بعض المفسرين من معنى الجنون . وإن يكن حملُ الفتنة على

الضلال أقرب إلى حِسِّ البيان ، كما أنه أقرب إلى سياق الآية بعده :
 « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .
 وقد سبق استقراء الاستعمال القرآني للهدى والضلال ، في تفسير آية الضحى
 « ووجدك ضالاً فهدى »^(١) .

وأصلها في الضلال عن الطريق أو الاهتداء إليه ، حسيًا ومعنويًا . ثم نُقِلَ إلى
 الدلالة الإسلامية على الكفر والإيمان ، وهذا هو معناها الظاهر في آية القلم ، مع
 ارتباطها بأصل المعنى الأول ، بلفظ السبيل ، ترشيحًا للاستعارة على المصطلح
 البلاغي .

وقال الطبري : « وهذا من معاريف الكلام ، وإنما معنى الكلام : إن ربك
 يا محمد هو أعلم بك وأنت المهتدى ، ويقومك من كفر قریش وأنهم الضالون عن
 سبيل الحق »^(٢) .

وهذا أقرب من قول الزمخشري : « هو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون ، أو يكون
 وعيداً ووعداً بجزاء الفريقين »^(٣) .

والآية أمسكت عن ذكر مفضول . أعلم . وهذا يطلقه من قيد المفاضلة بين عالم
 وأعلم ، دون حاجة إلى تأويل مفضول تقديره عند بعضهم : أعلم منكم ، أو أعلم من
 سواه . . .

« فَلَا تُطْعِمِ الْمُكْذِبِينَ • وَذُؤًا لَوْ تَذَهِنُ قَيْدَهُنَّ » .
 التكذيبُ هنا ، بآياتِ الله ونبوة رسوله عليه الصلاة والسلام .
 والإدهان : اللين والتساهل والمداراة . والمداهنة التحايل والملاينة والمداجاة .
 وترجع استعمالات المادة وصيغها في الأصل اللغوي إلى الدُهْن ، يُتخذ للتليين
 والتطرية . والدهان الصبغة . والدهين ، المكان الزلق كأنه دُهْن بالدهن .

(١) في الجزء الأول من التفسير البياني .

(٢) جامع البيان : ١٤/٢٩ .

(٣) الكشاف : ١٢٦/٤ .

وفي القرآن من هذا المعنى الأول ، آيتان :

« وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين »

(المؤمنون ٢٠)

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » (الرحمن ٣٧)

وبملحظ من التطرية والتلين جاءت الدلالة المجازية للإدهان ، في اللين والتساهل ، وشاع استعمال المداهنة في المداجاة والملاطفة عن غش وخداع ، أو عن تساهل وتفريط .

وفي القرآن من هذه الدلالة المجازية ، آيتان :

« أفبهذا الحديث أتم مُدْهِنُونَ »

(الواقعة ٨١)

وآية القلم : « ودُّوا لو تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » .

قبل في تفسيرها : ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك . أو : ودُّوا لو تلين في دينك فيلينون في دينهم . وقيل : ودوا لو تركنُ إلى آهتهم وترك ما أنت عليه من الحق فيما لوتك .

وقد نقلها الطبري ثم قال : « وأولاهما بالصواب عندي قولُ من قال : معنى ذلك ، ود هؤلاء المشركون لو تلين لهم يا محمد في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آهتهم ، فيلينون لك في عبادتك إهلك » .

واستأنسَ له بآية الإسراء :

« ولولا أن بَشَّناكَ لَقَدْ كَدَّتْ تَرَكَّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا » إذا لأذقناكَ ضِعْفَ

الحياة وَضِعْفَ الماتِ ٧٤ .

فالإدهان مأخوذ من الدهن ، شبه التلين في القول بتلين الدهن^(١) .

وهو غير المداهنة ، التي تحتل المبالاة والمداجاة .

وشغل نخاة ومفسرون بَعَقَدِ الصنعة الإعرابية ، عن ملح سر التعبير بـ « لو » التي تعطى حسَّ التمني البعيد من المشركين أن يلين لهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فوقفوا طويلاً عند ثبوت النون في « فيدهنون » والقاعدة عندهم أنها تحذف على

(١) تفسير الطبري ، جامع البيان : ١٥/٢٩ .

النصب في جواب التني • ودوا لو • لتضمنه معنى ليت .
قال الزمخشري : « عدل به عن ذلك إلى طريق آخر هو على تقدير خبر مبتدأ
محذوف : فهم يدهنون . أو على المصدرية ، المؤولة ، بمعنى : ودوا إدهانك ، فهم
الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك ؟ »^(١) ثم أشار إلى قراءة في بعض المصاحف بخذف
التون : • فيدهنوا • وتخريج القول عندهم على هذه القراءة ، يكون على وجهين :
أنه جواب • ودوا • لتضمنه معنى ليت ، والوجه الآخر أنه على توهم أنه نطق بأن ،
أى : ودوا لو أن تدهن فيدهنوا^(٢) .

وجمهور المصاحف على إثبات التون كما صرح أبو حيان في (البحر) وإنما جر إلى
كل هذه الوجوه من التأول والتقدير ، أنهم عرضوا الآية القرآنية على قواعدهم
النحوية ، ثم راحوا يلتمسون الحيل لتسوية الصنعة الإعرابية .
وقد قلت وأقول : ما يجوز أن يُعرض البيان الأعلى على قواعد النحاة ، وأنه
الأصل والحجة . ومن ثم تبقى الآية على وجهها ، وتكون الفاء في : فيدهنون حرف
عطف ، فثبت التون رفعا بالعطف على • تدهن • والفاء العاطفة لا تفقد ملحظ السببية .

• • •

وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مُّهِينٍ • هَمَّازٌ مَشَاوٍ بِتَمِيمٍ • مَتَاعٌ لِلْحَيْرِ مُعْتَدٍ
أَيْتِمٍ • عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ • أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَدِينٍ • إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ • سَمِيحٌ عَلَى الْخَرْطُومِ • .

في تفسيرنا لآية « لا أقسم بهذا البلد »^(٣) هدى الاستقراء إلى أن الكتاب المحكم لم
يستعمل مادة (حلف) بمختلف صيغها ، إلا في الحنث باليمين .
وحلاف : صيغة مبالغة من حالف . وقليلا تستعمل العربية في بيانها اسم الفاعل من
حلف ، فكان عدوها إلى حلاف ، أيذان بأن من يحنث في يمينه يدأب على الحنث
فلا يتورع من الإكثار من الحلف ، عادة وطبعاً .

(١) الكشاف : ١٢٦/٤ .

(٢) أبو حيان : البحر المحيط : ٣٠٩/٨ .

(٣) في الجزء الأول من التفسير البياني .

وهماز : صيغة مبالغة من الهامز. نقل الإمام الطبرى من أقوالهم في تأويلها :
 • أنه الذى يهزم الناس ويضربهم بيده ، لا باللسان .
 • وقيل هو المغتاب يطعن فى أعراض الناس بما يكرهون^(١) .
 وقال الزمخشري فى الكشاف : هـماز ، عيَاب طعان ؛ وعن الحسن : يلوى شذقيه فى أقمية الناس .

ويأتى فى تفسيرنا لسورة الهُمزة ، بعدُ ، استقراءً كامل لمواضع استعمال القرآن للهَمْز واللمز ، وتدبر لسياق الآيات فيها . وهو يهدى إلى أن الهمز الطعن والتجريح فى الغيبة ، أما اللمز فيكون مواجهةً صريحة .

والنيمة : الإيقاع بين الناس قصدَ الفتنة والتوريش بينهم بما يلقى العداوة والبغضاء . وأصل النَمِّ فى العربية : وسواسٌ همس الكلام وأثر الرّيح فى التراب . ومنه جاءت النيمة لنقش الكتابة وزخرفتها . وأحسبه نُقل إلى دلالة المجازية على الإيقاع والتوريش والفتنة ، بملحظ من اعتماد النيمة عادةً ، على زخرف القول والسوسة به همساً ، للإيقاع .

وبهذا الحسُّ الأصل للنيمة ، نفهم • مَشَاء بنميم • فى الآية ، دون تقييد لنميم بمن ينقل حديث الناس بعضهم إلى بعض ، أو المشى بينهم بالكذب كما نقل « الإمام الطبرى » فى تفسيره . بل تؤثر إطلاقه ، كى يدخل فيه كلُّ سعى بين الناس بالشر : بكذب القول أو صدقه ، بنقل حديث بعضهم إلى بعض ، أو إهاجة أحقاد بينهم وإيقاظ فتنة نائمة . . .

ومتّاع للخير : مبالغة من مانع . وظاهر السياق أن المراد بالخير عمومه المطلق نقيضاً للشر ، دون تحديد له بمنع المال الذى ألفت العربية أن تُعبّر عنه بالشح . والخير كما يكون ببذل المال ، يكون بالتراحم والدعوة إلى عمل صالح ، والتواصى بالحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . .

وفى تفسير آية الضحى « وللاخرة خير لك من الأولى » - بالجزء الأول - تدبر لآيات الخير فى القرآن الكريم ، هدى إلى أنه قلما يستعمله بمعناه المادى فى بذل

(١) تفسير الطبرى ، جامع البيان : ١٤/٢٩ .

المال ، ونعم الدنيا ، إلا بقريئة من صريح السياق كالإِنفاق والوصية ، في آيتي :

« قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » (البقرة ٢١٥)

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ

وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » (البقرة ١٨٠)

وإنما يغلب الانجاءُ به إلى تقيض الشر ، كالذي في آيات :

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى »

(البقرة ٢٦٣)

« وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْلِحُونَ » . (آل عمران ١٠٤)

« كَتَمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (آل عمران ١١٠)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ »

(البينة ٧)

« وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » (البقرة ٢٦٩)

« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ »

(الأنبياء ٧٣)

والعُتْلُ : الجلف الجافى الغليظ . ومن الاستعمال الحسى للمادة في اللغة : العتلة ،

واحدة العتل : حديدة كأنها رأسُ فأس ، والمراوَةُ الغليظة ، والناقاة لا تلقح . وعتلته :

جره عنيقاً .

وبملحظٍ من الغلظة في الاستعمال الحسى ، جاءت دلالة العُتْلُ على الجافى الغليظ .

وفي القرآن الكريم من المادة آيتا :

(الدخان ٤٧)

« خَلَّوْهُ فَاغْتَلَوْهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ »

(القلم ١٣)

« عَتَّلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ » .

نفههما بالدلالة اللغوية على الغلظة والخشونة ، مع ما في اللفظ نفسه من

جس الجفوة .

ثم يعطيها السياق القرآني ملحظاً من رهبة الزجر في قسوة الأخذ بآية الدخان، ومن الضعة والخسة واللؤم، في عتل زنيح، بآية القلم، بعد وصفه بأنه:

« حلاف مهين • هماز مشاء بنميم • مناع للخير معتد أثيم » .
 أما « زنيح » فلم تأت مادة ولا صيغة، إلا في آية القلم. ومن معانيها في اللغة: اللثيم المعروف بلؤمه وشره. ومنه قيل للدعي المستلحق بقوم ليس منهم، زنيح. وربما كان فيه أيضاً ملحظاً من دلالة الزئمة، وهي شئ يقطع من أذن البعير فيترك معلقاً. قاله « الراغب » (١).
 وقد فسرها ابن عباس، في مسائل ابن الأزرق، بولد الزنا. واستشهد له بقول الشاعر:

• زنيح تداعاه الرجالُ زيادةً (٢)

ونقل فيه « الطبري » معنى الفاحش اللثيم، والممصق بالقوم وليس منهم، واستشهد له بقول حسان:

• وأنت زنيح نيطَ في آلِ هاشمِ •

وقول آخر:

زنيحٌ ليس يعرف من أبوه بغى الأمِّ ذو حَسَبِ زنيح
 وخصه قوم، منهم الزمخشري في (الكشاف) « بالوليد بن المغيرة المخزومي، كان دعياً في قريش، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة » مع كلام طويل في الزنا وخبث النطفة. ونقله « أبوحيان » ومعه: « أن الوليد كان له ستة أصابع في يده. فكأنها الزئمة. ثم علق قائلاً: « والذي يظهر أن هذه الأوصاف ليست لمعين، وإنما تصدق على عامة من يتصف بها » (٣).

ونضيف: إن لفظ « كل » في صدر هذه الأوصاف: « ولا تطع كل حلاف

(١) مفردات القرآن: مادة زنيح.

(٢) المسألة رقم ٥٧. بتفصيل في (الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق) ص ٣٤٣.

(٣) البحر المحيط: ٣١٠/٨.

مهين» يخرج بها من الخصوص إلى العموم المستفاد صراحة من • كل • .
وتفسيره بالفاحش اللئيم ، أولى من تفسيره بولد الزنا : فالقرآن الكريم في محقه
للزنا ، إنما يقصر اللعنة على الزاني والزانية ، لا على أولادهما . والعربية حين استعملت
الزنيـم لولد الزنا ، لحظت فيه معنى لؤم الأصل وخبيث المنبت .
« أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » .

واضح أن فتنة المال وجاه العدد ، كانتا مدعاة الشر والأثرة والغلظة والبغي . لكن
من المفسرين من ربط الآية بالخطاب في صدر الآيات قبلها • ولا تطع • قالوا :
« كأنه نهاه أن يطبعه من أجل أنه ذومال وبنين » .
وياله ذهب الزمخشري فتأوله : ولا تطعه مع هذه المثالب ، لأن كان ذامال
وبنين .

وهذا تأول بعيد ينبو عنه الحس ، فما كان ^{عليه السلام} ، في عظمة خلقه وكرم سجاياه
وشرف نبوته ، مظنة أن يطبع « كل حلاف مهين • هـماز مشاء بنميم • مناع للخير معتد
أثم • عتَلَّ بعد ذلك زنيـم » من أجل أنه ذومال وبنين !
وإنما النهي عن طاعة المكذبين وكل حلاف لئيم ، فيما يعرضون من مساومات ،
والحنث في الأيمان دأبهم وعاداتهم ، وتحذير المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من أن
يُؤخَذَ بما قد يُبدون من إدهان ، احتيالاً على الموقف الصعب ، وقصد الفتنة والشر ،
مستظهرين بما لهم من مال وبنين .

• • •

« إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .
جهداً لنبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وتكديباً بآيات الله تعالى ، وإمعاناً في
البغي والإثم والتجبر والضلال ،
« سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ » .
الآية على وجه الوعيد بالإذلال والإهانة والتحقير ، صدعاً لكبرياء الغتر بماله
وبنيه .

والسمة العلامة ، والوسم علامة يُعرف بها الموسم . ولعل أصل استعماله اللغوي

من الوَسْم وهو أثر الكى . والاسمُ علامةٌ مميزةٌ لتعريف الأشخاص . وفي المصطلح النحوى ، يأتى الاسمُ قسيمَ الفعل والحرف .

وأكثر ما تدور المادة على العلامة المميزة ، حسيًا ومعنويًا .

والخرطوم الأنفُ أو مقدمه . وشاع استعماله فى الحيوان ، الفيل ، واستعمال الأنف للإنسان . وإذا كان الأنف أبرز ما فى الوجه ، نُقِل إلى الدلالة المجازية على الرفعة والتكريم ، أو الخسة والتحقير ، فقالوا الأنوف والأنف ، من الأنفة بمعنى العزة والكبرياء . وكنتوا عن المترفع بمثل قولهم : أشمَّ الأنف ، وأنفه فى السماء . كما كنتوا عن الإذلال بمثل قولهم : أنفه . راغم ، وأنفه فى التراب .

وفى القرآن الكريم ، استعمل الأنف للإنسان على أصل معناه اللغوى فى القصاص

بآية المائدة ٤٥ :

« وكنتنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف

والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاصاً » .

والعدول عن الأنف إلى الخرطوم فى آية القلم ، فيه ملحظ التحقير والهبوط بآدمية

ذلك المفتون الشرير الجافى اللثيم ، إلى دونية البهائم والدواب .

ومن هذا ، يبدو ضعف ما قيل فى تأويله ، بأن معناه : مسؤودٌ وجهه أو نضرب

بالسيف على أنفه - وأيدوا هذا التأويل بما حلَّ بالوليد بن المغيرة يوم بدر ! - أو نسّم

على أنفه بسميةٍ يُعرف بها كفره وانحطاط قدره !

نقل هذه التأويلات « الإمام الطبرى » بعد أن ذكر اختلاف أهل التأويل فيه :

« حقيقة هو أم مجاز ؟ وإذا كان حقيقة فهل هو فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ » (١) .

وردد الخرطوم إلى الأنف ، يضيع به سر البيان فى تحقير المغرور الخبيث ، والهبوط

بآدميته إلى البيهية . أما ما نقلوا عن « النضر بن شميل » من أنه تأوله فى معنى

« سنَّهده على شرب الخمر » ، فقيه شططٌ وبُعد كما ذكر « أبو حيان » (٢) .

ووجه الشطط فيه أن حدَّ الخمر لم يكن قد سُرع بعد لتؤدى الآية معناها من الزجر

(١) تفسير الطبرى ، جامع البيان ج ٢٩ وانظر معه التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٨ سورة القلم .

(٢) البحر المحيط : ٣١١/٨ .

والوعيد والتحقير ، ومن المسلمين مَنْ حُدُوا على شرب الخمر بعد أن حرمت ، لا ينفرد به هذا العُتْلُ الزنيم الكافر ، ليكون في إنذاره به فرطُ تحقير وإذلال وإهانة !

• • •

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ • وَلَا يَسْتُونَ • فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ • فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ • فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ • أَنْ أَعُدُّوا عَلَيَّ حُرْبَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَلَّفُونَ • أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ • وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ • فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ • بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ • قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ • قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ • فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ • قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ • عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ • كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

البلاء المحنة ، والابتلاء الامتحان .

والجنة في الآية ، على معناها الأول قبل أن تأخذ دلالتها الإسلامية على دار النعيم في الآخرة . وترجع دلالة المادة في الأصل اللغوي إلى معنى الخفاء ، يبدو بوضوح في الجنين مخفياً في رحم أمه ، والجنون خفاء العقل ، والجن جنس خفي من المخلوقات ، نقيض الإنس .

وبملحظ السر في الخفاء ، قيل جنّ عليه الليل . والمجنّ ما يُتخذ درعاً ساترة للوقاية .

وقيل للأرض المغطاة بالشجر والزرع جنة ، ثم نقلت الجنة إلى المصطلح الإسلامي في جنة الآخرة . وهو الاستعمال الغالب للفظ جنة وجنات في القرآن الكريم - نحو مائة وعشرين مرة - على أنها جاءت بدلالاتها الأولى على الجنة المعروفة في الدنيا ، مفردة في تسع آيات ، ومثناة في خمس آيات ، واثنى عشرة مرة بصيغة الجمع ، لجنات الدنيا . والسياق هو الذي يحدد هذه الدلالة .

والصرم : القطع ، ومنه حصدُ الزرع وجنى الثمر . ثم أخذ دلالاته المجازية على

الهجر . والصريمُ : المقطوع ، والمحصود . ونقلوا أنه الرماد الأسود بلغة خزيمية ، ورملة معروفة في اليمن .

والإصباح : الدخولُ في وقت الصبحِ أوَّلَ النهار .

والاستثناء معروف . وظاهر السياق في الآية ، على أن أصحاب الجنة أقسموا ليحصُدُنَّ زرعَ جَنَّتِهِمْ ويقطُفُنَّ كلَّ ثمارها ، لا يبقون منها شيئاً . لكن من المفسرين مَنْ تأولوه في الآية بأن أصحاب الجنة لم يقولوا : « إن شاء الله » حين أقسموا ليصرمُنَّها مصبحين .

وظاهر النص ، أن خطيبتهم التي أخذوا بها ، هي التصميم على صرم جنتهم خفية ، والاستئثار بكلِّ خيرها لا يؤدون حقَّ مسكينٍ فيه .
والتخافت : أن يتحدث بعضهم إلى بعض في خفوت ، قصداً إلى الخيلولة دون سماع أحد لما يتخافتون به .

والحرْدُ : المنع ، من حرَدتِ السُّنَّةُ إذا منعت خيرها ، وحارَدتِ الناقة إذا منعت دَرَّها . لُحِظَ فيه أن ذلك لا يكون إلا عن نفور ، فجاءت دلالة الحرْدِ على النفور .
والتلاوم : من صبغ المفاعلة ، وذلك بأن يلوم بعضهم بعضاً .
والعريية تستعمل الأوسط والوسط في معنى العدل ، ملحوظاً فيه أنه توازن بين طرفين متباعدين .

والتسبيح ذكر الله ، ونفهمه في آية القلم : « لولا تسبحون » بمعنى : لولا تذكرون الله فتؤدوا حقه وتشكروا له نعمته .

والطغيان : تجاوز الحد ، وأصل استعماله في طغيان الماء ، ثم نقل بهذا الملحظ إلى دلالاته على الجبروت وتجاوز الحد ، على ما سبق تدبره في تفسير آية النزاعات خطاباً لموسى عليه السلام : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » بالجزء الأول من هذا الكتاب .

وتوسَّع مفسرون في تفصيل قصة أصحاب الجنة المذكورين في سورة القلم ، وخلصتها أن هذه الجنة كانت لرجل صالح ، حددوا قومه وبلده فقيل إنه من أهل اليمن ، من صوران قرب صنعاء ، وقيل من أهل الحبشة ، وقيل من أهل الكتاب .

كما حدّثوا زمنه فقالوا : إنه كان بعد رفع عيسى عليه السلام ! وقد كان يستبقى من حصاد جثته وثمرها قوتاً سته ، ويتصدق بالباقي على المحتاجين ، ويترك للمسكين ما يخطئه المنجل من حصاد ، وما يخطئه القطّاف من العنب ، وما يبقى على السباط تحت النخل^(١) . وكان بنوه يضيّقون بذلك ويحاولون حمله على الشحّ والفضن بما يملك . فلما مات قالوا : إن فعلنا ما كان أبونا يفعل ، ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال . وأقسموا فيما بينهم ، حين آن الحصاد ، أن يتسللوا إلى جنتهم في الصبح الباكر ، ليحتموا ثمرها وأكلها لا يبقون منه شيئاً لمحتاج . وفيها هم نائمون ، طاف على جنتهم طائف - قيل في رواية إنه الشيطان ، وفي أخرى إنه جبريل - اقتلع النخل والكرم والشجر ومضى فطاف به حول البيت العتيق تبركاً ، ثم وضعه حيث قامت بلدة الطائف ، وليس في أرض الحجاز بلدة غيرها فيها الماء والشجر والأعاب ! وترك الجنة صريماً جرداء خلاء .

فلما أصبحوا ، تنادوا ليغدوا على حرّهم ، وانطلقوا إلى جنتهم منسللين وهم يتخافتون : ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . فما إن رأوها حصيداً فقراً ، حتى ثابوا إلى رشدهم وأدركوا أنهم ضالون . ولما ذكّرهم أوسطهم بما تهاوتوا به حين حذرهم من نسيان الله والتفريط في حق نعمته ، أقبل بعضهم يلوم بعضاً ، وتضرّعوا إلى الله أن يغفر لهم ما كان من طغيانهم وظلمهم : « عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون^(٢) » .

والقرآن الكريم يقدم لنا في هذه السورة المكية المبكرة ، مثلاً مما سوف يتلونها في الوحي من قصص الأولين : لا يتعلق فيها بذكر الأشخاص والأزمان والأمكنة إلا ما كان من جوهر القصة وموضع العبرة . وهو إذ يضرب المثل بأصحاب الجنة الذين أنعم الله عليهم فبغوا وظلموا أنفسهم ونسوا الله فحقّ عليهم العقاب والحرمان ، لم يحدد لنا من أى قوم كانوا ، من الحيشة أو من اليمن . ولم يذكر عددهم وأسماءهم ،

(١) انظر القصة بتفصيل ، في تفسير الطبرى : ٢٩/٢٠ ، والبحر المحيط لأبي حيان : ٣١١/٨ ، والتفسير

الكبير للفخر الرازى : ٨ .

(٢) انظر الهامش السابق .

ولاحد زمن القصة : هل كان بعد عيسى عليه السلام أو قبله : كما اكتفى بطائف طاف على الجنة بلبيل وأصحابها ثائمون . دون أن يشير من قرب أو بعد ، إلى ما يسبق تلك الرويات الغريبة التي تقول في • طائف • إنه شيطان ، أو إنه جبريل اقتلع شجر الجنة وكرومها ونخلها وحمله فطاف به حول الكعبة ثم غرسه في موضع بلدة الطائف ! ولنا أن نستأنس في فهم آيات القلم ، بآية يونس في مثل الحياة الدنيا :

« ... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ٢٤ .

• • •

وضمير الجمع في « بلوناهم » عائد على المكذبين وكل حلاف مهين
وفي المائلة يبينم في البلاء وبين أصحاب الجنة ، نقل « أبو حيان » قول من قالوا :
« العذاب النازل بقريش المائل لأمر الجنة ، هو الجذب الذي أصابهم سبع سنين حتى رأوا اللدخان وأكلوا الجلود » أو أن « تشبيه بلاء قريش ببلاء أصحاب الجنة ، هو أن أصحاب الجنة عزموا على الانتفاع بشمرها وحرمان المساكين فحرمهم الله تعالى ، وأن قريشاً حين خرجوا إلى « بدر » حلفوا على قتل الرسول ﷺ وأصحابه ، فإذا فعلوا ذلك رجعوا إلى مكة فظافوا بالكعبة وشربوا الخمر ، فقلب الله عليهم بأن قتلوا وأسيروا^(١) . »

ويوم بدر قد كان في السنة الثانية للهجرة ، بعد نزول سورة القلم بنحو خمس عشرة سنة . واضح أن المفسرين نظروا في تأويلها ، إلى واقع التاريخ بعد نزولها . وظاهر النص ، على أى حال ، صريح في ردع غرور كل الطغاة المتجبرين الذين غرتم فتنه المال وجاء العدد وأخذتهم العزة بالإثم والطغيان ، دون أن يتعلق بخصوص مالتي المشركون « في بدر » في العام الثاني للهجرة ، من هزيمة ساحقة .

• • •

وقوله تعالى :

« كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

يلفت إلى مناط العبرة فيما تلت الآيات من أمر أصحاب الجنة ، ويتجه بها إلى العظة ، والإنذار بما يهيق بالطاغين الظالمين من عذاب معجل في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

والذى أطمئن إليه ، والله أعلم ، أن الضمير في « لو كانوا يعلمون » لمن « بلوناهم » من البطغاة المكذبين الذين نزلت القصة عبرة لهم ومثلاً ، وليس لأصحاب الجنة الذين أقرؤوا بظلمهم وتابوا وأنابوا ، ورجعوا إلى الله . ويؤنس إلى هذا الوجه في فهم الآية ، أن القرآن الكريم بعد أن تلا ما كان من بغى أصحاب الجنة وعقابهم ثم توبتهم وضراعتهم ، أمسك عن ذكر مصيرهم ، فأمرهم متروك إلى علم الله ورحمته . فانجبه النذير إلى من تصدوا لرسول الله ﷺ بالتكذيب والتحدى ، وارتبط بالآية قبله : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » كما ارتبط بالآيات بعدها :

• • •

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ التَّيْمِيمِ • أَفْجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ
كَالْمُجْرِمِينَ • مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ • أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ •
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ • أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ
لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ؟

وفيا بين القرآن الكريم عاقبة المتقين بعد الذى ساق من عبرة أصحاب الجنة ، ونذير للظلمة الظالمين ، فيعمد إلى الأسلوب الاستفهامى الذى يخرج عن أصل معناه اللغوى في طلب الجواب ، إلى الرفض والإنكار : أن يجعل الله المسلمين كالمجرمين . وهو إنكار يحمل من التقرير لثوبة المتقين المسلمين ومآب العصاة المجرمين ، بقدر ما يحمل من الردع لنوى العقول والبصائر .

والخطاب في الآيات للمشركين المجرمين من عتاة قريش ، إنكاراً لسفه عقولهم وهزواً بفضلالو حكمهم ألهم كتاب يدرسون فيه إن لهم ما يتخيرون من دنياهم

وأحرامهم؟ أم لهم أيمانٌ وعهودٌ موثقة على الله سبحانه ، بالغة إلى يوم القيامة ، إن لهم ما يحكمون؟

أى غرور غرهم بالخالق ، أن يُبقى عليهم ما آتاهم من نعمة يتلبيهم بها فكفروا ووجدوا؟ وأى وهم تورطوا فيه ، أنهم ما أوتوا الجأة والمالَ والبنين إلا لكونهم أهلاً للإكرام؟

« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمّن^(١) » .

ثم يتجه الخطاب إلى المصطفى ﷺ :

« سَلَّمُهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ » .

يضمن أن لهم إلى يوم القيامة ما يحكمون؟

وتمضى كل هذه الأسئلة لا تنتظر جواباً ، وإنما حسب القرآن الكريم أن يواجههم بها على هذا الأسلوب البياني ، غصّاً من شأنهم وصدعاً لغرورهم وتحقيراً لكرهم . وعدم انتظار الجواب عنها ، فيه تعجيز لهم وإفحام ، وفيه كذلك عبرة بالغة لكل ذى سمع وبصر .

ويبدو لى ، والله أعلم ، أن الأمر بالإتيان فى الآية :

« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » .

يتعلق به ظرف الزمان فى الآية بعدها :

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » خَاشِعَةً

أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » .

أى : فليأتوا بشركائهم ، إن كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق . . .

نذيراً صادعاً ووعيداً رادعاً . . .

ومن أغرب ما روى فى تأويل « يوم يكشف عن ساق » أنها ساق الرحمن !

نقل « الطبرى » فى ذلك حديث أبى الزعراء عن عبد الله (بن مسعود) : « يتمثل

اللهُ للخلق يوم القيامة حتى يمر المسلمون ، فيقول : مَنْ تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله

(١) انظر تفسير الآية فى سورة الفجر .

لا تشرك به شيئاً . . . فيقول : هل تعلمون ربكم ؟ فيقولون : سبحانه إذا اعترف إلينا عرفناه . قال فعند ذلك يكشف عن ساق فلا يبقى مؤمن إلا خيراً ساجداً ، ويبقى المنافقون ظهورهم طبقاً واحداً كأنما فيها السفايد ، فيقولون : ربنا ! فيقول ، سبحانه : قد كنتم تدعون إلى السجود وأنتم سالون^(١) .

ونقل «الزمخشري» من حديث ابن مسعود : «يكشف الرحمن عن ساقه فأما المؤمنون فيخرون سجداً ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً واحداً كأن فيها سفايد»^(٢) .

وقد تعلقت المشبهة بهذا التأويل ، فهل أعوزهم من بيان العريية أنها ألفت مثل هذا الاستعمال المجازي : الكشف عن الساق ، أو التشمير عنها ؛ كناية عن التأهب والفرع وقت الشدة والحرب ؟ قال الشاعر :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشرِّ البوارح
وقال حاتم الطائي :

أخوال الحرب إن عَضَّتْ به الحرب عَضَّها
وإن شمَّتْ عن ساقها الحربُ شمَّرا
وقال ابن قيس الرقيات :

تُذهِلُ الشَّيخَ عن بَيْتِه وتُبْدِي عن خِدامِ العَقِيلَةِ العِذراء
وقال الراجز :

قد شمَّتْ عن ساقها فشُدُّوا

وجدَّتْ الحربُ بكم فحجِدُّوا

وأى شدة أقطع هولاً على الكافرين من يوم الحساب ، حين يُدعون إلى السجود تعجيزاً وتحسيراً وتقريعاً ، فإذا الفرصة قد فاتت : أضاعوها ظلماً وبعياً حين كانوا يُدعون في حياتهم الدنيا إلى السجود وهم سالون قادرون ؟ ولا ضرورة لأن يُحمل عجزهم عن السجود في الآخرة ، على العجز الجسدي

(١) تفسير الطبري ، جامع البيان : ٢٤/٢٩ .

(٢) الكشاف : ١٣٠/٤ وقال في تحريمه : رواه الطبري مختصراً ، وأخرجه الحاكم من طريق

سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن ابن مسعود ، في حديث طويل ليس فيه تصريح برفعه .

فَتُكَلِّفُ لِتَأْوِيلِهِ بَأْنَ « أَصْلَابِهِمْ تَعَمُّمٌ ، أَى تُرَدُّ عِظَامًا بِلَا مَفَاصِلَ لَا تَتَشَنَّى عِنْدَ الرَّفْعِ وَالْحَنْفِضِ » أَوْ أَنَّ « فَقَارَ ظُهُورِهِمْ تُدْمَجُ فَتَصِيرُ فِقْرَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا سَالِمِي الْأَصْلَابِ وَالْمَفَاصِلِ » (١) . « أَوْ أَنَّ الْخَلْقَ يَقُونُ فِي الْمَوْقِفِ أَرْبَعِينَ عَامًا ثُمَّ يَتَجَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَخْرُونَ سَجْدًا إِلَّا الْمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُ يَصِيرُ فَقَارَ أَصْلَابِهِمْ مِثْلَ صِيَاصِي الْبَقْرِ . . . ظُهُورُهُمْ طَبَقٌ وَاحِدٌ كَأَنَّمَا فِيهَا السَّفَافِيدُ » (٢) .
فَذَلِكَ ، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ ، مِمَّا لَا يَحْتَمِلُهُ مِنْهَجُنَا فِي الْأَخْذِ بِنَصِّ آيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، لَفْظًا وَسِيَاقًا .

وَالأَوَّلَى أَنْ يُحْمَلَ الْعَجْزُ عَنِ السُّجُودِ عَلَى فَوَاتٍ أَوْ أَنَّ التَّعْبُدَ وَمَهْلَةَ التَّكْلِيفِ . وَنَظِيرُهُ مَا فِي آيَاتِ الْفَجْرِ ، فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنِ مَصِيرِ الطَّغَاةِ وَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَجِزَاءٍ مِنْ يَنْكُصُونَ عَنِ أَحْتِمَالِ تَبَعَاتِ التَّكْلِيفِ وَيَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَيَجْبُونَ الْمَالَ حَبًّا حَبًّا :

« وَجِيءَ بِيَوْمِئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى • يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي • فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ » .

• • •

« فَذَرَّنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ • وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ • أَمْ تَسْأَلُهُمْ أُجْرًا فَهُمْ مِنْ مَقْرَمٍ مُثْقَلُونَ • أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ؟ »

الحديث المشار إليه في الآية ، هو ما تلاه النبي ﷺ من كلمات ربه . ويحتمل أن يكون ما جاء في سورة القلم من حديث الآخرة . وهو ما ذهب إليه « أبو حيان » . والاستدراج : الأخذ على إمهال درجة درجة ، وقد فسره الإمام الطبري : وذلك بأن يُمتنعهم بمناع الدنيا حتى يظنوا أنهم مُتَعَوُّا بِهِ بِخَيْرٍ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ فَيَتَادَوْا فِي طَغْيَانِهِمْ ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ بِنَعْتِهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٣) .

(١) الزمخشري : الكشاف ٤/١٣١ . وأبو حيان : البحر المحيط ٨/٣١٦ .

(٢) الطبري : جامع البيان ٢٩/٢٤ .

(٣) جامع البيان : ٢٩/٢٨ .

والذي نظمتهن إليه ، والله أعلم ، هو أن يكون استدراجهم إلى ما يأتي من التحدى بالمعجزة ، تلزمهم بها الحجة على إعجاز القرآن ، بعد أن أملى لهم فقالوا فيه ما وسعهم أن يقولوه . ونستأنس لهذا الفهم بآيات الأعراف :

« والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » وأملى لهم إن كيدى متين • أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من حجة إن هو إلا نذير مبين » . ١٨٤-١٨٢ .

أملى له : أمهله وأرخصى له في عنانه ، لتكون الحجة ألزم والعقاب أفدح . وبغنة الأخذ ، تأتي من قوله تعالى : « من حيث لا يعلمون » . والأجر : جزاء العمل . وسياق الآية أنه من الأجر المادى ، بشاهد من النص « فهم من مغرم مثقلون » . ومغرم مصدر ميمي من الغرم . وقد أمر الله رسوله ، أن يترك له أمر هؤلاء الطغاة المكذبين ، الذين يمجدون داعى الحق ، وما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يسألهم أجراً على ما يهديهم إليه من خير الدنيا والآخرة ، فيقبلهم المغرم . وما كان عندهم علمٌ بالغيب ، ليجادلوه فيما يتلو من وحى ربه :

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ • لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ • فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ »

صاحب الحوت هو يونس عليه السلام (الصافات ١٣٩) وقصته طويلة ، تقتصر فيها على ما جاء في القرآن الكريم ، ولا يكاد في جملة يخرج عما في سورة القلم حيث تلفت الآيات إلى جوهر القصة ومناط العبرة ، والخطاب فيها إلى المصطفى ﷺ ، تقوية له على ما يحتمل من أذى المكذبين ، ورياضة له على الصبر لحكم ربه عن رضى وتسليم ، لا عن غيظ مكبوت وضيق مكظوم .

• • •

ثم تختتم سورة القلم بهاتين الآيتين :
« وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرَ لِقَوْنَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ

إِنَّهُ لَمَجْتُونٌ - وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

تأييداً للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، يرتبط بما بدأت به السورة من مثل هذا

التأييد الإلهي :

« نَ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْتُونٍ . وَإِنَّ لَكَ

لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . » .

صدق الله العظيم